الأَثَرُ الخاص

قلنا إننا نعنى بالأثر الخاص ؛ ما لم تكن اللغة بجملتها مظهراً له ، وذكرنا أن هذا الأثر يظهر فى كل من ألفاظ اللغة ومعانيها وأغراضها وأسلوبها .

وواضح أن لهذا الأثر فى كل من هذه الأمور الأربعة ، مظاهر يحتاج كل منها إلى بيان ؛ ولو مجملا ، يجعله أقدر على الإعلان عن نفسه .

وإنى أعوذ بالله — وقد استعذت بمعاذ — أن يكلنى لنفسى ، وأضرع إليه جلت قدرته ، أن يرزقنى عونه ، حتى لا تزل قدمى ولا يضل قلمى .

أَلْفَاظُ اللُّغَةِ

تهذيب ألفاظ اللغة ، الألفاظ الإسلامية ، الألفاظ الاصطلاحية الألفاظ المشتركة ، الألفاظ المترادفة ، الألفاظ الدخيلة ، اللحن واللغات العامية .

تهذيب أَلفاظ اللغة

لغة الأمة صورة صادقة لذوقها العام ، تكون سهلة لينة ، أو خشنة جافة ، بمقدار ما لها من شعور رقيق ، وحس مرهف .

ولا ريب أن للتحضر أثراً قويًّا فى إرهاف الحس ، وترقيق الشعور ، واعتبر ذلك فى لغة أهل القاهرة وما فيها من عذوبة ورقة ، وفى لغة أهل

« قنا » وما فيها من خشونة وصلابة . ثم اطلب لذلك علة ، فلن تراها إلا التحضر والتبدى .

والعرب أمة أكثرها ضارب فى الصحراء ، لم يتحضر منها إلا القليل ، فلا جرم . كان فى لغتهم الخشن الجاف . والحوشى الغريب . وقد أسلفنا عن الواسطىّ أن لغة قريش كانت سهلة ، لمكان حياة التحضر التى كانت تحياها فى ذلك .

ولعل من يقرأ الأدب الجاهلى ويتدبره ، يزداد إيمانًا ، بما للحضارة من أثر فى ألفاظ اللغة . فإنه سيرى فى أدب أهل الوبر كثيراً من مثل « جحيش » و « مستشزرات » و « جحلنجع » وما إلى ذلك مما ينفر منه الطبع . وينبو عنه السمع ، على حين أنه يكاد لا يصادفه من ذلك شىء فى أدب القرشيين .

والقرآن الكريم . فضلا عن أنه نقل العرب من جفاء البداوة وخشونتها إلى لين الحضارة . فنزلوا عن حوشيتهم ، وتوخوا العذوبة فى ألفاظهم — قد تخير لألفاظه أجمل ما تخف به نطقًا فى الألسن وقرعًا للأسماع . حتى كأنها الماء سلاسة والنسيم رقة . والعسل حلاوة ، وهو بعد بالمكان الأسمى الذى أدهشهم وحير ألبابهم . وأفهمهم أن البلاغة شىء وراء التنقيب والتقعير . وتخير ما يكد الألسن ويرهقها من الألفاظ ؛ فعكفوا عليه يتدبرونه ، وجروا إليه يستمعونه . حتى من بقى منهم على ضلالته لم يستطع أن يخدع نفسه فكان يذهب فى غفلة من قومه فى جنح

الظلام يستمع إلى النبي صلوات الله عليه يرَدده ويتهجد به ؛ وحتى أشفقوا أن يفتن حسنه نساءهم وبنيهم ، فطلبوا إلى أبي بكر رضوان الله عليه أن يكف عن ترتيله بصوت مسموع !

ذلك شأن القوم ، والدعوة يومئذ طفل يحبو ، فلما خضعت جمهرتهم لحكمه ونزلوا عند رغبته ، زاد حبهم له ورغبتهم فيه ، فبعد أن كان إعجابهم به وحرصهم عليه ، وتقديسهم له ، من جهة ما فيه من جمال نظم وحسن أداء ، وروعة أسلوب ، وما إلى ذلك مما يتصل بالناحية البيانية التى يهشون بطبعهم لها ، ويستريحون بفطرتهم إليها — ظاهرَ ذلك معنى آخر يعتمد العاطفة الدينية بما فيها من قوة وما لها من سلطان ، وهذا وذاك من شأنه أن يحملهم على تدبره ، والإكثار من تلاوته وحسن الاستماع له والإنصات إليه .

أفليس فى ذلك ما يحملهم على التجهم للغاتهم ومحاولة السير بها فى طريقه ، ويطبع ألسنتهم على توخى سهولة الألفاظ وعذوبتها ؟

نشاهد أن أحدنا يقرأ لكاتب ، يجد فى كتابته لذة ويصادف لها أريحية ، لا تصل كيفما كان شأنها إلى ما يجد العربى من ذلك بالنسبة للقرآن — فلا يلبث أن يتأثر به ، ويجرى قصداً أو غير قصد إلى محاكاته ، وتحرى موطن الروعة والإعجاب فى كلامه ؛ بل هذه العامة تقبل على الصحف والمجلات لسبب من الأسباب وليس عندهم من الاستعداد والتأثر بالفصاحة ما عند العربى فيدع ذلك أثراً فى لغتهم يكاد

يرفعها إلى لغة الخاصة ، ويجعلها مزيجًا من العامية والفصحى ، والذى يقارن بين اللغة المصرية الدارجة قبل الثورة الوطنية مع قلة الصحف يومئذ وانصراف الناس عنها ، وبعد تلك الثورة لكثرة الصحف وإقبال سواد الشعب عليها ؛ يتنور هذا الأثر واضحًا ، ويتبينه جليًّا .

فهل من الممكن أن يتعرض أولئك العرب للقرآن هذا التعرض ، ويتدبرونه هذا التدبر ، ويعجبون به هذا الإعجاب ، ثم تكون لغتهم كما كانت قبل ذلك ؟ لا ريب أن ألفاظ اللغة تأثرت بالقرآن تأثراً بالغًا من هذه الجهة ؛ جهةتدبرهم له ، وإنصاتهم إليه ، وقد ظهر هذا الأثر واضحًا فى أدب أولئك الذين اشتد قربهم منه وعلاجهم له ، وحسبنا أن ننظر إلى خطب وكتب خلفاء النبى عليه السلام ومن هم على شاكلتهم ، لنطلع على هذا الأثر يكاد يحدث عن نفسه ، ثم إن هؤلاء لم يقفوا فى تأثرهم بالقرآن عند أن تكون ألفاظهم شبيهة بألفاظه ؛ وقريبة منها ؛ بل تعدوا ذلك إلى أن أخذوا نفس ألفاظه ، وشكل تراكيبه ، وظهر ذلك حتى فى الشعر !

قال عبد الله بن رواحة :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمين

وقال حسان ، وشعره صورة صادقة لتأثره بالقرآن :

فإمَّا تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا ، فاصبروا لجلاد يوم يعز الله فيه من يشـــاء

وقال آخر :

فإنك لا تدرى بأية بلـــدة تموت ، ولا ما يحدث الله فى غد

وقد يساورك الشك فى صحة نسبة هذا الشعر إلى هؤلاء ؛ لأن الناس قد وضعوا عليهم كثيراً ، وتقبله أصحاب السِّيَر والمغازى لم يبحثوا فيه ، فتقول : إن مثل هذا لا يصلح دليلا على هذا الأثر ؛ وجواب ذلك ما يقول علَم من أعلام البحث فى عصرنا الحديث إن الوُضَّاع إنما يتحرون فيما يضعونه أن يكون قريب الشبه بالأصل ، وهم علماء ، فلا ريب يعرفون مميزات العصور ، وطوابعها ، فإذا لم يكن الموضوع هو الأصل ، فهو قريب منه ، ويصح الائتناس به على كل حال .

على أن أمامنا النثر بنوعيه : الكتابة والخطابة ، يتراءى فيهما كثير من ألفاظ القرآن حتى لقد بلغ بأحدهم أن ينتزع خطبة كاملة من آياته ، وهذا شىء من السعة والكثرة بحيث يحول دون الاستشهاد له والتدليل عليه ، أن هذه البحوث المتواضعة لم يقصد بها إلى التفصيل .

ظل العرب على هذه الحال : يجرون على سنن القرآن فى ترقيق اللغة وتهذيبها ويقتدون به فى ذلك حتى تذوقوا الحياة الحضرية وتأثرت بها نفوسهم فظاهَرَ القرآنَ على تهذيب ألفاظ اللغة وترقيقها سبب آخر ، هو هذه الشعوب العريقة امتزج بها العرب ، واتخذوا هم العربية لسانهم فراحوا جميعاً يوسعونها صقلا وتهذيباً بما لهم من ذوق هو وليد الحضارة وربيب المدنية حتى كادت لذلك لا تصلح لغير الغزل والغناء .

الألفاظ الإسلامية

يراد بالألفاظ الإسلامية ، تلك التى تُوسِّع فى دلالتها لتتَّسع للمعانى التى حدثت عن القرآن ، وواضح أن القرآن جاء بعبادات لم تكن فى جملتها معروفة للعرب ، كما جاء بمبادئ وتعاليم لم يكونوا أيضًا يعرفونها ، مما يسميه العلماء : الحقائق الشرعية ؛ وبديهى — إذا كان العرب لا يعرفونها — أن لا يكون فى لغتهم ما يدل عليها ويكشف عنها ؛ لأن الدلالة فرع الوضع ، والوضع موقوف على معرفة الموضوع له ؛ وإلا كلفنا اللغة شططا وألزمناها محالا ، ليس فى طوقها ولا فى طوق أية لغة عُرِفت وتُعرف ، أن تحققه وتقوم به .

لذلك أخذت تلك المعانى التى استحدثها القرآن باشتراعه ، أسماءً كانت لمسميات بينها وبين هذه صلة من الصلات .

فمن ذلك ، لفظ المؤمن ، كان يعرف من الإيمان بمعنى التصديق مطلقًا ، والكافر ، من الكفر بمعنى الستر ، ومنه :

يعلو طريقة متنها متواتراً فى ليلة كفر النجوم ظلامُها

والفاسق لم يكن يعرف إلا من الفسق ، بمعنى خروج الرطبة من قشرتها ، والصلاة بمعنى الدعاء ، والزكاة بمعنى النماء ، والصوم وأصله الإمساك مطلقًا ، والحج ، وأصله القصد كذلك . . . وغير ذلك كثير يحتاج فى الإحاطة به إلى بحث خاص يفرد به ويعقد له .

استعمل القرآن واستعمل الناس معه هذه الألفاظ وغيرها استعمالا خاصًّا ، وشرط لها شرائط خاصة ، لا يسوغ استعمالها إلا بعد توفرها ؛ قال ابن فارس فى فقه اللغة :

« كانت العرب فى جاهليتها على إرث من إرث آبائهم ، فى لغاتهم وآدابهم ، وقرابينهم ونسائكهم ؛ فلما جاء الله بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت ، فعفى الآخر الأول » .

ويتصل بهذا ، تلك الألفاظ التى لم تستطع معانيها أن تعيش إلى جانب القرآن ؛ لأنه يتصادم معها ويأباها فماتت .

ومن ذلك « المرباع » وهو ربع الغنيمة الذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهلية ؛ و « النشيطة » وهى ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم ، أو ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود ؛ و « المكس » وهو دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق الجاهلية ؛ وقول المملوك لمالكه « ربى » وقولهم للملك « أبيت اللعن » . . . إلخ .

ونوع آخر من الألفاظ أهمل ، لا لأن معانيه لم يقرها الإسلام ؛ بل لأنها غريبة حوشية ، أو خشنة جافة أهملها العرب حين درجوا فى حياة الحضارة ولم يذكرها منهم إلا من يريد التقعر فتسخر منهم العامة ، وتسخر بهم الخاصة ؛ كالذى روى القالى فى أماليه ، لأبى محلّم الشيبانى فى

أواخر القرن الثانى ، من كتاب له إلى بعض الحذائين فى نعل . . .

قال هذا المتقعر :

« دِنْها ، فإذا همت تأتَدِن ، فلا تخلّها تمرْخِد ، وقبل أن تقْفَعِلّ ، فإذا ائتَدَنَتْ فامسحها بخرقة غير وكِيَّة ، ولا جَشِيَّة ، ثم امعَسْها مَعْسًا رقيقًا ، ثم سِنَّ شفرتك وأمِهها فإذا رأيت عليها مثل الهَبْوَة فسِنَّ رأس الإزميل ، ثم سم بالله وصل على محمد صلى الله عليه وسلم . . . إلخ » !

لا جرم ، كان هذا المتقعر وأمثاله أثقل على الناس من هذه الألفاظ ، على ألسنة الأطفال أول عهدهم بالنطق وكان هذا التقعر أدعى إلى الإمعان فى كراهة الغريب ، والإقبال على السهل السائغ ، حتى فارق أكثر هذه الألفاظ أدمغة العرب إلى ألسنة الرواة ومن ذلك إلى بطون الكتب والنواميس لها ما لآثار الربوع العافية والمنازل الدارسة !

الأَلفَاظُ الاصْطِلَاحِيَّةُ

ويراد بها تلك الألفاظ التى أصبحت تدل على معانٍ استلزمتها الحياة التى أُخرِج العرب إليها ، وقد كانوا لا يعرفونها قبل الإسلام على النحو الذى عرفوها به بعده ؛ كما يراد بها كذلك تلك التى خرجت عن دلالتها الأولى إلى الدلالة على معان علمية ، اصطلاحية ، لم تكن بالضرورة موجودة عند العرب ، ولا كانوا يعرفون منها شيئًا .

اقتضى اشتراع القرآن حياة جديدة ، تخالف فى كل — أو جل — مظاهرها ، الحياة العربية الجاهلية ؛ حياة ذات أنماط خاصة ، ونظم ثابتة تهيمن عليها حكومة منظمة بما للحكومات من مزايا ومقومات ، وتسود فيها أساليب مخصوصة لا تعيش إلا فى ظل الحضارات ، ويحيط بها ، على الجملة ، ما يحيط دائمًا بحياة المدنية والاستقرار .

وقد أسلفنا أن العرب قد كان لا بدَّ لهم من التعصب للعربية لأنها لغة القرآن ، وفى حياتها وتسويدها ، حماية له وإعزاز لشأنه ، — فكان من الطبيعىّ أن يتحملوا ألفاظ اللغة ، بما حباها الله ، من مرونة ومطاوعة — على أن تؤدى تلك المعانى التى طرأت عليها ، ولاحت فى دولتها ، ما وسعهم ذلك .

وفى الحق ، أن الذى ينظر إلى مدلولات الألفاظ اللغوية فى الحياة الجاهلية ، ثم ينظر إليها فى الحياة الإسلامية ؛ يرى فرقًا عظيما بين النوعين يجعله يعتقد أن هذه اللغة الشريفة خلقت لتكون اللغةَ فى سائر الأزمنة .

اختلفت هذه المدلولات اختلافًا عظيماً ، حتى لو بعث الواضع لها ليفهم منها ما نفهم نحن اليوم ، لأعياه ذلك وما وجد إلى فهمه سبيلا ؛ دع عنك تلك الألفاظ التى تعطيك الظواهر الطبيعية ، وأعضاء الناقة ، وضروب سيرها وما إلى ذلك مما لا يخضع للأحكام الزمنية ، ولا يجرى على دستور النشوء والارتقاء ، وانظر إلى تلك المعانى التى تقبل النقص والكمال ، والضعف والقوة ، فإنك سترى دذلالة الألفاظ عليها تختلف

هذا الاختلاف الشديد فى البداوة والحضارة ، بل إنك سترى هذه الدلالة تختلف فى بعض عصور الحضارة عنها فى بعض آخر ، واعتبر ذلك فى مثل : دولة ، وزير ، جريدة ، مجلة . . . وهو كثير والشواهد عليه تكاد تحدث عن نفسها .

فمن ذلك لفظ « الخليفة » بمعنى من يخلف غيره ويقوم مقامه من دون تخصيص ، ثم انحصر معناه فيمن خلف النبىَّ عليه السلام — والوزير ، يعرف بمعنى المناصر ، ثم صار يدل على ما نرى — والحاجب معناه الساتر ، ثم استعمل فى الرجل يلزم باب الخليفة فكان أصغر رجل فى الدولة ، حتى ضعف الخلفاء فى العصر العباسى ، فكان لا يقل عن الوزير .

وهكذا كل ما اتصل بالدولة ، كالسكة ، والتوقيع ، والشرطة ، والمسترزقة ، والمتطوعة ، والجباية ، والمصادرة . . . وعلى الجملة كل ما كان للحضارة فيه أثر . وما أحسب أنى أستطيع حصر ذلك على كثرته وترامى أطرافه ؛ على أنه لا فائدة فى هذا الحصر والاستقصاء .

هذا ، وقد اقتضى القرآن علومًا شرعية ، كالأصول والفقه ، ولغوية ، كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب ؛ كما اقتضت الحياة الجديدة نقل علوم من الأمم الأخرى ، لم يكن العرب ليعرفوها ، وقد بلغت هذه وتلك الثلثمائة أو زادت ، وكان بالضرورة لهذه العلوم مصطلحات لا مناص من إعطائها ألفاظًا تدل عليها ؛ لذلك أخذت هذه المعانى

الحديثة ألفاظاً عربية ، تواضع عليها المشتغلون بتلك العلوم ؛ وقد كثر ذلك كثرة هائلة ، حتى كأن ألفاظ اللغة وضعت وضعاً جديداً ؛ فأنت ترى لهذه الألفاظ الكثيرة فى كل تلك العلوم ، دخيلة كانت أم أصيلة ، معانىَ لغوية وأخرى اصطلاحية .

ولعل مجرد عرض هذه العلوم على كثرتها وكثرة مصطلحاتها فى مرآة الفكر ، يجعلنا نتصور أن الإحاطة بها وبما أعطيته من ألفاظ تدل عليها ، يتطلب بحثاً خاصاً وقدرة فائقة ، وحياة تتسع لما يعترض ذلك ويتراءى فيه من آلام وآمال !!!

على أن قدامى العلماء قد تكفلوا بذلك فقاموا بوضع معاجم لتلك المصطلحات العلمية ، من أشهرها كتاب « التعريفات » وكتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » .

فمن تلك الألفاظ الاصطلاحية العلمية ، أسماء العلوم من النحو ، والصرف ، والوضع ، والتوحيد ، والفقه ، وأصول الفقه ، والتفسير ... إلخ ؛ وكذلك أسماء مصطلحات تلك العلوم ، من الرفع ، والجزم ، والفاعل والخبر ، والهمز والمد ، والاستعارة والمجاز ، والمديد والخفيف والطويل . . . إلخ . ومن ذلك — وهو فى مصطلحات العلوم الدخيلة — الجراحة والتشريح ، الرطوبة ، المزاج الحار ، البارد ، الجاف ، اليابس ، فى فنون الطب ، والرصد والتعديل ، والقوس والوتر . . . فى مصطلحات الفلك والرياضة ؛ والعرض والجوهر ، والكمية والكيفية فى

مصطلحات الفلسفة ...

ومما لا شك فيه أن العرب ما كانوا ليعرفوا من هذه الألفاظ التى صبحت تدل على معانى أحدثها العلم أو خلقتها حياة التحضر .

قيل لأعرابىّ : أتهمز إسرائيل ؟ قال إنى إذن لرجل سوء ! قيل له : فتجرُّ فلسطين ؟ قال : إنى إذن لقوى ! وقال خلف : قلت لأعرابى : ألقى عليك بيتًا ساكنًا ؛ قال : على نفسك فألقه ! ! وروى صاحب المزهر أن أعرابيًّا قيل له : ما القلم ؟ قال : لا أدرى ! قيل له : توهمه ، قال : عود قُلم من جانبيه كتقليم الأظفور ! !

هذا ، وليست ثمة حاجة إلى القول بأن أثر القرآن فى اللغة ما كان مقصوراً على التوسع فى مدلولاتها ، أو نقلها من معانيها إلى معان أخرى لسبب من الأسباب ؛ وإنما تعدى ذلك إلى خلق ألفاظ لم تكن معروفة فى العهد الجاهلىّ ، وقد قالوا : إن العربى إذا سمت ملكته ، وقويت فصاحته ارتجل ما لم يسبق إليه ، وقالوا : إن رؤبة والعجاج ، كانا يرتجلان ألفاظًا لم يسبقا إليها ولم تسمع من غيرهما !

فهل كان يمكن أن يروا هذه المشاهد الكثيرة ، ولا يضعوا لكثير منها ألفاظًا لم تعرف من قبل ؟ وبخاصة فى العصر الأول ، والملكات كاملة ، والفصاحة قوية ؟ وإذا كنت ترى هذا الارتجال فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى مثل كميَّة وكيفية ، مع أن الملكة بدأت تضعف ، أو هى ضعفت بالفعل ؛ فإن ذلك يجعلك تجزم بأنهم يومذاك قد ارتجلوا ألفاظًا

كثيرة ، يدلون بها على ما لاح لهم من مشاهد ، لم يكونوا فى جزيرتهم يرون لها ظلاً ؛ ولئن اختص الناس مثل رؤبة والعجاج بالحديث عنهما فى هذا الباب ، إن ذلك لما كان لهما من مقام سام ، ولشهرتهما بفن لم ينازَعا فيه ، وهو فن الرجز ، والناس ، أبداً ، حين يقررون حكماً من الأحكام إنما يعمدون فى الاستشهاد له بمعروف مشهور.

الألفاظ المشتركة

هى تلك التى يدل كل منها على أكثر من معنى كلفظ « العين » تدل على الجارحة المخصوصة ، وعلى النقد من الدراهم والدنانير ، وعلى مخرج ماء البئر ، وعلى الجاسوس . ومنه الأضداد ، كالجون للأسود والأبيض ، والصريم للّيل والنهار !

وقد اختلف الباحثون فى اللغة : هل للمشترك وجود فيها ؟ ففريق أثبت وآخر نفى ؛ قال الآمدى : والمختار جوازه ووقوعه ؛ ثم قال : أمّا الجواز العقلى ، فهو أنه لا يمتنع عقلا أن يضع واحد من أهل اللغة لفظاً واحداً على معنيين مختلفين ؛ ويوافقه عليه الباقون ؛ أو أن يتفق وضع إحدى القبيلتين للاسم على معنى حقيقة ، ووضع الأخرى له بإزاء معنى آخر من غير شعور لكل واحدة بما وضعته الأخرى ثم يشتهر الوضعان ويخفى سببه ، وهو الأشبه . . . إلخ .

وما أردت أن أدلل على وجود المشترك فى اللغة ؛ لأن هذا ليس

موضوعى ، وقد قتله العلماء بحثًا ، وخرجوا من ذلك بإمكانه ووقوعه ، فحسبى أن أتابع فى ذلك جمهرة أهل اللغة .

إنما أوردت كلام الآمدىّ ، لأن فيه إشعاراً بسبب الاشتراك فى اللغة على وجه معقول مقبول ، وهو قوله :

« أو أن يتفق وضع إحدى القبيلتين للاسم على معنى ووضع الأخرى له بإزاء معنى آخر من غير شعور لكل واحدة بما وضعته الأخرى ثم يشتهر الوضعان ويخفى سببه » .

فهو يرى أن إحدى القبائل تضع هذا اللفظ « عين » مثلا للنقد ، وتضعه قبيلة أخرى للجارحة المخصوصة ، وتضعه قبيلة ثالثة للجاسوس ثم يشتهر لفظ العين دالاً على كل من هذه المعانى ، وينقله الخلف عن السلف كذلك ؛ وهو لا يرى ذلك سبباً للاشتراك بل السببَ الجديرَ بالاعتبار !

ولعل الذى جعل هذا السبب كذلك : جديراً بالاعتبار ، أنه يقضى على الشبهة القوية التى يستند إليها المانعون ، من الاشتراك فى منعه ، وهى أن فيه تلبيسًا على السامع لا يمكن أن يقصد إليه الواضع ، ووجه القضاء على تلك الشبهة ، أن هذا التلبيس لم يكن مقصوداً وإنما وقع اتفاقًا ؛ وما ذنب الواضع ، وهو حرّ له أن يضع ما يشاء ، إذا وضع اسما لمعنى وضعه غيره لغير ذلك المعنى ، ثم لسبب ما ، اشتهر الاسم دالاً على المعنيين جميعًا فأدّى ذلك إلى التلبيس على السامع ، على افتراض صحة ذلك ، ما دام هذا التلبيس غير مقصود ؟ !

لذلك كان هذا الرأى فى التعليل للاشتراك من أقوى الآراء ، بل أقواها حجة ، وأظهرها محجة .

وإذن فاختلاط بعض قبائل العرب ببعض فى أى موضع ولأى سبب ، يعين على ظهور المشترك فى اللغة . إذ كانت شهرة الاسم بإزاء المعانى المختلفة وقفًا على سماعه دالاً على كل هذه المعانى . وكان مما يذلل هذا ويمهد له . الاجتماع والاختلاط .

وكلَّما كان الاجتماع أكثر ، والاختلاط أشد ، كان ذلك أدعى إلى كثرة الألفاظ المشتركة ؛ ومما لا شك فيه أن لغات العرب كانت متخالفة كما أسلفنا ، لا فرق فى ذلك بين عرب الشمال وعرب الجنوب ؛ فهذه تميم تقول : « السدفة » وتريد الظلمة بينما تقولها قيس وتريد الضوء . وقد رأينا أن « ثَبْ » فى الجنوب معناها : اجلس ، وفى الشمال معناها : اقفز ؛ فإذا اجتمع بعض هؤلاء ببعض وسمع كل منهم من الآخر ما لا يعرف . وتكرر ذلك . عرف كل منهم ما لم يكن يعرف . وأصبح القيسى يفهم من « السدفة » الظلمة والضوء معًا . ويفهم التميمى منها الضوء والظلمة جميعًا ، وصار الحميرىّ يفهم من الوثوب القفز والجلوس ، ثم بمرور الزمن يصبح ذلك لغة لكل هؤلاء ، وعلى هذا القياس !

نستطيع بعد ذلك أن نقول : إن القرآن أحدث فى اللغة كثيراً من الألفاظ المشتركة ، ما دام اختلاط العرب واجتماعهم هو السبب المباشر فى هذا . فقد جمع بينهم فى الجزيرة متخاصمين متحاربين ، أول عهدهم

بالإسلام ، فى غزوات كثيرة ، خضعوا بعدها للإسلام وأسلموا ، ثم اجتمعوا عليه متحابين متآلفين يداً على من سواهم ، يفتحون فارس وغير فارس ؛ ثم بعد أن قهروا الأعاجم خرجوا من الجزيرة واجتمعوا فى هذا الملك الواسع ، وفى ظل هذا النعيم الشامل ؛ وفى كل هذا ما فيه مما تتعارف به لغتهم ، ومما يحقق كثيراً من الألفاظ المشتركة .

ثم لما جاء عصر تدوين العلوم ، وجعل الرواة يفدون إلى الجزيرة ، ليأخذوا عن أهلها الذين لم تفسد ملكاتهم ، وأخذوا أكثر ما أخذوا عن قيس وتميم ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين مع ما بين هذه اللغات من اختلاف ؛ دونت هذه اللغات من غير تفصيل بحيث اختلط بعضها ببعض ، واندرجت كلها تحت اسم شامل ، هو « اللغة العربية » ؛ وذلك من غير شك يجعل باب المشترك من السعة والكثرة بمكان .

ولست فى حاجة إلى القول بأن هذا ليس كل أسباب الاشتراك فى اللغة ، فظاهر أن هناك أسبابًا أخرى مثل الأسواق العربية الجاهلية ، ومثل الخطأ فى النقل كأن يسمع سامع كلمة لها معنى فينقلها لضد هذا المعنى ، لأن الضد أقرب خطوراً بالبال ، وما إلى ذلك مما يعنى الباحث عن أسباب الاشتراك فى اللغة ، وليس هو موضوعنا ، فإنا إنما نحاول إيضاح العلاقة بين القرآن وبين المشترك ، وأنه من الأسباب التى أدت إليه .

الألفاظ المترادفة

وهى تلك التى يدل لفظان منها فأكثر على معنى واحد : كما نقول : السيف والعضب ، والأسد والليث والغضنفر .

وقد اختلف العلماء فيه أيضًا . غير أن أعلام البحث اللغوىّ على أن مخالفة المخالفين نوع من الشذوذ ؛ فإنه لا مانع من أن يضع قبيل ؛ اسماً لمعنى . ويضع قبيل ثان لهذا المعنى نفسه اسمًا آخر ، وهكذا ، ثم تشتهر هذه الأسماء بين العرب دالة جميعها على هذا المعنى ؛ وهذا جائز ، بل واقع بالنسبة إلى لغتين ؛ فهذا البط للحيوان المعروف معرَّب واسمه عند العرب إوز ، والورد معرّب وهو عند العرب حوجم . والتوت معرب واسمه الفرصاد !

وإذا كان هذا جائزاً وواقعًا بالنسبة إلى لغات الأمم المتباينة ، فإنه أقرب بالنسبة إلى القبائل العربية ، أو على الأقل ، لا فرق بين هؤلاء وأولئك .

وليس أمامى بعد ما قدمت من قول ، ما أقوله هنا ؛ فاختلاط العرب وتدوين اللغة اللذان دفع إليهما القرآن ، فكثر بهما المشترك ، هما اللذان كثر بهما المترادف ، ولا فرق بينهما فى ذلك .

وخلاصة هذا البحث أن من أسباب المترادف والمشترك فى اللغة أمران يتصلان بالقرآن الكريم ...

أحدهما : اختلاط قبائل العرب وأحيائهم بعضهم ببعض ، وهم

إن كانوا قد اختلطوا فى جاهليتهم فى حروبهم وحجهم وأسواقهم . فقد كان هذا الاختلاط فى الإسلام أقوى وأعظم أثراً . وشتان ما اجتماع عاجل لا يقوم إلا ليتخاذل . واجتماع قوى الصلة بعيد المدى .

وثانيهما : تدوين ما وثق الرواة بصحته من لغات القبائل المختلفة من غير أن يعينوا لغة كل قبيلة إلا فى القليل النادر . لأنهم نظروا إلى هذه اللغات بمرآة عامة هى اللغة العربية ؛ ممَّا جعل الناظر فى كتب اللغة يخرج منها بأسماء كثيرة لمسمى واحد . وباسم واحد لمسمَّيات كثيرة !

ونثبت هنا ما يقول ابن فارس ممَّا يومئ إلى ما ادعينا . قال :

« . . . . وكل هذه اللغات مسمَّاة منسوبة إلى أصحابها . لكن هذا موضع اختصار ، وهى . وإن كانت من لغة قوم دون قوم . إلا أنها لما انتشرت تعاورها كلّ » .

الألفاظ الدَّخيلَة

ويراد بها تلك الألفاظ التى داخلت اللغة العربية من طريق اختلاطها بالأمم الأعجمية ولغاتها . ومن طريق الحياة الجديدة علمية كانت أو اجتماعية — وذلك أن حياة التحضر والمدنية اضطرت العرب أن يأخذوا للغتهم من اللغات الأخرى . ما لم يكونوا يرون من أسباب العيش ووسائل الحياة المترفة الناعمة . وقد كان ذلك فى سائر مرافق الحياة ، من أدوات الزينة ، وأنواع المأكل والمشرب والملبس وآلات الغناء .